الصورة الروائية المعاصرة وبلاغة السمات.

The contemporary narrative figure and Rhetoric of the characteristics.

شرشاب خالد 1

1 جامعة الجيلالي ليابس/ سيدي بلعباس

eeha.22000@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021-10-08 **تاريخ القبول**: 2021-12- 12**تاريخ النشر**: 2021-12-30

الملخص: تنفرد الصّورة الرّوائيّة عن غيرها من الصّور البلاغيّة الأخرى بما يُعرف بالسّمات البلاغيّة للخطاب، الّتي تميّز كلّ خطاب روائيّ بخصائص لغويّة أدبيّة عن غيره من الخطابات الرّوائيّة الأخرى، تضطّلع بوظائف تواصليّة تعزّز منطق الخطاب وتسهم في تحقيق بلاغته، فضلاً عن قيمتها الجماليّة الرّاقية في عمقها التّصويريّ ومسحتها الإنسانيّة، عبر تجاوز البحث في الأسلوب بمدلوله اللّغويّ إلى البحث في المعانيّ الأدبيّة بوصفها روح العمل الأدبيّ ولبابه، فهل يمكن عدّ بلاغة السّمات إضافة منهجيّة مميّزة غير مسبوقة في ارتباطها بالنصّ في كلّيّته وشموليّته، وفي لغته وأسلوبه وأدبيّته وتميّز صوره عن غيرها من الصّور البلاغيّة، وقدرتها على الإسهام الفاعل في تشكيل وحدتها البلاغيّة الجامعة بين الشّكل والمضمون وبين الإمتاع والإقناع؟

الكلمات المفتاحية: بلاغة السمات، الصورة الروائية، سمات الخطاب.

Summary : The narrative figure is unique from other rhetorical images, with what is known as the rhetorical characteristics of discourse, that distinguishes each discourse with linguistic and literary characteristics from other narrative discourse, it carries out communicative functions that enhance the logic of discourse and contribute to achieving its rhetoric, as well as its high aesthetic value in its pictorial depth and human touch, Through we approach the research in style with its linguistic connotations, to researching literary meanings as it is the soul and core of literary creativity, is it possible to have several rhetoric of the features can be considered a distinctive methodological addition that is unprecedented in its connection to the text in its totality and comprehensiveness, and in its language, style, and literature, and its images are distinguished from other rhetorical images, and its ability to actively contribute to the formation of its rhetorical unity that combines from and content, between pleasure and argumentation?

Key words : Rhetoric of the characteristics, narrative figure, discourse characteristics.
liability ; Lease rights

الصورة الروائية المعاصرة وبلاغة السمات.

المؤلف المرسل: شرشاب خالد ، **الإيميل**: eeha.22000@gmail.com

1- مقدمة:

بعد التّراكم المعرفيّ والمنهجيّ للدّراسات المهتمّة بالبلاغة النّوعيّة، المنفتحة على مختلف الأجناس الأدبيّة والأنواع الفنّيّة والخطابات المعرفيّة، لم تعد الصّورة الرّوائيّة مجرّد حلية بلاغيّة، كما كانت في البلاغة التقليدية المستندة للثقافة الشعرية، بل صارت وسيلة تواصليّة إنسانيّة، نسخّرها يوميّاً في حياتنا المعيشة، ونستغلّها في شؤون تفكيرنا وكتاباتنا وأحلامنا، فتجاوزت وظيفتها الجماليّة السّاكنة الّتي لازمتها دهوراً مديدة نحو الاضطّلاع بوظائف جديدة مثل الوظيفة التّواصليّة الحجاجيّة، الّتي لا يمكنها أن تتحقّق إلّا بوجود متلقّ يستقبلها ويقرأها ويعمل على تأويلها، فعادت للصّورة حيويّتها وصبغتها الإنسانيّة الّتي ضاعت بين المجاز والانزياح.

وقد انفردت الصورة الروائية المعاصرة بما يعرف بالسمات البلاغية، المميّزة لكلّ خطاب روائي عن غيره من الخطاب الروائية الأخرى، في لغته وأدبيّته وقدرته على التواصل وإنجاز مقاصد الخطاب السردي؛ فما مفهوم الصورة الروائية في الثقافة البلاغية الجديدة؟ وما مفهوم السمة البلاغية في الخطاب السردي المعاصر؟ وكيف تطوّر هذا المفهوم؟ وما الروافد المعرفية والمنهجية المساهمة في عودة مفهوم السمة إلى الواجهة من جديد؟ وما هي أهمّ سمات الحطاب الروائي المعاصر؟.للإجابة عن هذه التساؤلات سنحاول تحديد المصطلحات والوقوف على مفاهيمها البلاغية الجديدة في الثقافة النقدية المعاصرة، بداية بتحديد مصطلح الصورة الروائية وتتبّع توسع مفهومه في الثقافة المعاصرة، ثمّ تحديد مفهوم مصطلح السمة البلاغية في النقد السردي العربي المعاصر، قبل الوقوف على أهم سمات الخطاب الروائي العربي المعاصر.

2 – الصورة الروائية في الثقافة المعاصرة:

2-1- مفهوم الصورة الروائية:

تستعمل لفظة صورة "Figure" في أكثر من مجال من مجالات المعرفة الإنسانيّة، تتّخذ في كلّ منها معنىً خاصّاً وسمات ووظائف معيّنة، لكنّها لا تخرج في معناه اللّغويّ العام عن الشّكل والتّمثال والمجسم أو الهيئة أو الصّفة أو النّوع (آبادي، 1344هـ، ص73/02.) أو نقل الواقع وتصويره أو النّقش أو الرّسم أو البحث أو التّشخيص، لأنّ الصّورة "ترد في كلام العرب على ظاهرها، وعلى معنى حقيقة الشّيء وهيئته، وعلى معنى صفته، يقال: صورة الفعل كذا وكذا أي هيئته، وصورة الأمر كذا وكذا أي صفته"(ابن منظور، 1997، ص:85/04.) لذا لا نجد اختلافاً كبيراً بين المعنى اللّغويّ قديمه وحديثه وبين المعنى الاصطلاحيّ الّذي سنتناوله بشيء من التّفصيل، ونقف على اشتراكهما في معاني: الهيئة والشّكل والنّوع والصّفة.

بحث محمد أنقار عن الجذور اللّغويّة العميقة لكلمة Imagen/Image في الثّقافة الغربيّة، فوجدها ترجع إلى الجذر Imitari وتنحصر في معنى التّقليد والمحاكاة (أنقار، 1994، ص13.) وهي لا تتجاوز في القواميس اللّغوية معنى "تصوير شخصيّات، أشياء (...) رمز، وجه، صورة (...) الكلام الغنيّ بالصّور" (larousse de poche, 1979, p 210.)، بمعنى أنّها لا تخرج عن مجال التّصوير والتّعبير والتّقليد، سواء أكان التّصوير بالرّسم والألوان، أم بالنّحت أم بوسيلة أخرى، أم كان التّعبير بالكلمات أم بالأشكال أم بالحركات والإشارات، وسواء كان التّقليد حرفيّاً أم تجريديّاً، انعكاسيّاً أم تخييليّاً، فالصورة في أبسط وصف لها "تعبير عن حالة أو حدث، وهي أيضاً لوحة مؤلّفة من كلمات أو مقطوعة وصفيّة في الظّاهر" (غريب، 1991، ص190.) ولا تبتعد كثيراً عن معناها المعجميّ في اللّغة العربيّة، ولا عن المعنى الاصطلاحيّ المتمحور حول التّعبير والتّصوير والتّمثيل باللّغة أو بالأشكال أو بالحركات أو بالصّور أو بأيّة وسيلة تعبيريّة أخرى ممكنة.

خضع مفهوم الصّورة في البلاغة الجديدة لتحوّلات مفصليّة، بعدما تناوله النقّاد والبلاغيّون بداية من منظور الأنموذج الشّعريّ الّذي أصّلوه وقعّدوا له وقاسوا على منواله، وما ترتّب عن هذا التّوجّه التّقعيديّ من اعتقاد بأنّ الصّورة البيانيّة مستقّلة عن السّياق الّذي ترد فيه والظّروف المحيطة بتشكّلها، فصارت حركة البلاغة التّقليديّة وفق هذا المنظور "حركة تراجعية، بمعنى أنّها تردّ مختلف التّجارب إلى نمط

ثابت، معرضة عن تبدّل الظّروف والأحوال وتباين النّصوص" (حمادي، 1981، ص616.) فضيّقت واسعاً باقتصارها على الصّورة بأنموذجها الشّعريّ، قبل أن يخترق مفهومها التّقليديّ السّياج الشّعريّ الّذي سجن فيه ردحاً من الزّمن، منطلقاً نحو رحابة الفنون والأنواع الأدبيّة الحديثة، مثل المسرح والرّواية الّتي فتحت أمامه المجال واسعاً نحو التّطوّر والانتشار.

أسهمت اللّسانيّات الحديثة بداية في الدّفع بمصطلح الصّورة إلى الهامش لصالح مقولات ومفاهيم بلاغيّة تقليديّة من قبيل التّشبيه والاستعارة والمجاز المرسل، لولا أنّ البلاغيّين الجدد دفعوا إلى الوقوف على الرّابطة الّتي تجمع بين الاستعارة والتّشبيه، بعدما وجدوا في مصطلح الصّورة أحسن جامع بينهما، فساهموا في عودة الصّورة للواجهة من جديد، حتّى وإن ظلّ مفهومها في البداية مرتبطاً في أصوله بالثّقافة الشّعريّة التّقليديّة، وقد تجلّى ذلك الارتباط بوضوح في جلّ الدّراسات التّأسيسيّة الّتي قاربت الصّورة في الرّواية والمسرح من خلال استنادها إلى آليّات الأنموذج الشّعريّ بوصفها تكثيفاً بلاغيّاً، رغم رغبتها في التّخلّص منه وتوسيع الفجوة بين الصّورتين الشّعريّة والرّوائيّة.

تعدّ الصّورة الرّوائيّة شكلًا تعبيريّاً أوسع وأغنى من أن يُحصر في صيغ محدودة وأنماط محصورة، لأنّها "تمتلك جذوراً متعالية، بخلاف الصّور المعياريّة الّتي يسهل ضبطها وفق حدود وقواعد مرسومة سلفاً" (مشبال، 2010، ص94.) فهي تصوير لغويّ جماليّ مفعم بالخلق والإبداع والابتكار والحياة والحلم والخيال، تمتلك طاقة لغويّة تصويريّة تشخيصيّة تتجاوز البلاغة التّزيينيّة المرتبطة بالشّعر نحو البلاغة النّوعيّة، المتعلّقة بمختلف الأنواع الأدبيّة والفنّيّة والخطابات الإنسانيّة المتباينة، المنفتحة على المعرفة الإنسانيّة المتجدّدة باستمرار، ممّا يجعلها عصيّة عن الضّبط والتّحديد شأنها في ذلك شأن الحلم والخيال والقبح والجمال.

تمتلك الصّورة الرّوائيّة من الحريّة في التّشكّل والرّحابة في التّنوّع مجالاً واسعاً خصباً، يجمع إلى الأشكال التّعبيريّة التّقليديّة أخرى حديثة ومعاصرة، لأنّها "مفهوم قابل للتّشكّل في عدّة مظاهر، فقد تكون وصفاً أو نعتاً، أو أيّ وسيلة تعبيريّة تقريريّة أو غير تقريريّة" (مشبال، 2010، ص98.) فلا حدّ لتشكّلاتها المبتكرة ولا ضابط لها سوى ما تعّلق بأدوارها ووظائفها المنوطة بها ضمن نسيج الخطاب الرّوائيّ، بمعنى أنّ الوظيفة البلاغيّة هي وحدها المحدّد لشكل الصّورة وطبيعتها التّصويريّة، حتّى غدت في انفتاح دائم، تتنوّع أشكالها وتتوسّع أساليبها تبعاً لقدرة الخطاب على الاستعانة بمختلف الوسائل والأدوات التّعبيريّة الإنسانيّة الممكنة، وقدرته على التّداخل الأجناسيّ المستوعب لكثير من الأجناس الأدبيّة والفنون الإبداعيّة والخطابات المعرفيّة.

تأسّست الصّورة الروائيّة في مفهومها العام على تمثّل الواقع المادّي، وتشخيص الحياة الإنسانيّة تشخيصاً تجريديّاً يتّسم بالاختزال والتّكثيف والتّخييل، وتجاوز الواقع في صورته الظّاهريّة المشاهدة، من أجل ذلك يمكن تعريفها بأنّها " الصّوغ اللّسانيّ المخصوص الّذي بواسطته يجري تمثيل المعانيّ تمثيلاً جديداً ومبتكراً، بما يحيلها إلى صور مرئيّة معبّرة" (إبراهيم، 1994، ص03.) مما حوّلها إلى تصوير لسانيّ طافحٌ بالحركة مفعم بالحياة، قادر على تحويل المسموع من المعاني إلى أشكال محسوسة، تنقلها من دلالاتها المعجميّة الباردة إلى صور تعبيريّة حجاجيّة تمنح الخطاب هويّته ومقاصده وأبعاده الإنسانيّة، وتبعث فيه روح التّجدّد والثّراء مع كلّ قراءة وتلقّي، تجري مع حركة الحياة المتسارعة وتدور معها حيثما دارت.

الصّورة الروائيّة تشكيل لغويّ ثريّ وعميق، يأخذ أشكالاً جماليّة وأخرى تخيّيليّة بأبعاد تواصليّة إنسانيّة "ثريّة في قوالبها ثراء فنون الرّسم والحفر والتّصوير الشّمسيّ، موغلة في امتداداتها إيغال الرّموز والصّور النّفسيّة والاجتماعيّة والأنثروبولوجيّة والإثنيّة، جماليّة في وظائفها مثلما هي سائر صور البلاغة ومحسّناتها" (أنقار، 1994، ص15.) بمعنى أنّها إفراز تخيّيليّ حالم غير محدود، وتشكيل فنّي متنوّع ومتجدّد للواقع والمشاهد، وتمثيل حسّيّ وذهنيّ يضطّلع بأدوار ووظائف متعدّدة، بعضها حسّيّ جماليّ لغويّ شكليّ، وبعضها تواصليّ حجاجيّ اجتماعيّ وإنسانيّ، وبعضها تربويّ تعليميّ معرفيّ.

الصورة الروائية المعاصرة وبلاغة السمات.

2-1- توسع مفهوم الصورة في الثقافة المعاصرة:

توسّع مفهوم الصورة البلاغيّة الجديدة متجاوزاً الصّورة اللّغويّة التّقليديّة بانفتاحه على حقول وأدوات تعبيريّة متنوّعة، إلى حدّ "أصبح يشمل كلّ الأدوات التّعبيريّة الشّعريّة، ممّا تعوّدنا على دراسته، ضمن علم "البيان" و"البديع" و"المعانيّ" و"العروض" و"القافية" و"السّرديّ" وغيرها من وسائل التّعبير الفنّيّ" (الولي، 1989، ص10.) فتحوّلت من صورة لسانيّة بيانيّة إلى صورة حسّيّة تخييليّة إبداعيّة إنسانيّة، تتجاوز تصوير الواقع المادّيّ ومساءلته إلى التّحليق نحو عوالم خارقة حالمة محتملة، تحمل أبعاداً جماليّة وأخرى نفسيّة تنقل القارئ إلى مستوى أعمق، عبر ما تُضفيه في الخطاب من خصوصيّة في التّعبير، ممّا مكّنها من تشييد عوالم أكثر جمالًا ومتعةً وخصوبةً وثراءً، وأهّلها لأن تتبوّأ مكانتها اللّائقة في مجال النّقد الأدبيّ المعاصر، وتنتظم بفعاليّة في سياق البلاغة الجديدة والثّقافة الإنسانيّة المعاصرة عبر وسائل المعرفة والتّواصل.

يستند هذا التّوسّع إلى عدّة حقول معرفيّة مثل البلاغة والنّقد والفّلسفة والفنون التّشكيليّة والمسرح والسّينما والفوتوغرافيا والعمارة والإعلام وغيرها، إلّا أنّها بالرّغم من توسّعها الدّائم لم تتنكّر للبلاغة الشّعريّة القديمة، فاحتوت في رحابها ما تعارفت عليه البلاغة التّقليديّة من صور مجازيّة ومحسّنات بديعيّة، مع ما تنتجه الخطابات من صور بلاغيّة في إطار خصائصها الأجناسيّة وتقاليدها النّوعيّة، نلمح ذلك التوسّع في الصّورة الرّوائيّة الّتي بالرّغم من خصوصيّتها الحكائيّة إلّا أنّها "لا تتناقض مع الاستعارة، وليس لها أيّة عقدة تّجاهها" (أنقار، 1994، ص21.) بمعنى أنّه يمكن الصّورة الرّوائيّة أن تحوّل أيّة استعارة لغويّة مهما كانت درجة كثافتها إلى طاقة تصويريّة بلاغيّة، لتصنع منها صورة بلاغيّة حيّة، أو على الأقل توظّفها لتأثيثها وتدعيمها.

التّصوير أسلوب قرآنيّ بامتياز، استخدمه الخطاب الدّينيّ آليّة أسلوبيّة بأبعاد ومقاصد حجاجيّة لإفحام المعاندين والردّ على شبهاتهم وتفنيد أباطيلهم وإعجازهم في أن يأتوا بمثله، وهو ما يعرف في الدّراسات القرآنيّة بالإعجاز البلاغيّ للقرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (القرآن الكريم، الآية 32/09.) مصوّراً حال المعاندين الّذين يريدون أن يردّوا الحقّ ويشوّهوا حقيقته، "فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشّمس أو نور القمر بنفخة نَفَسه، ولا سبيل إلى ذلك" (الصابوني، 2001، ص494/01.) إنّها صورة تمثيليّة لا تستند إلى الواقع الحسّيّ المشاهد بقدر استنادها إلى التّجسيد والتّمثيل والتّخييل الحالم في الوصف والتّشكيل، لها مثيلاتها في الخطاب القرآنيّ.

تناول سيد قطب في كتابه "التّصوير الفنّيّ في القرآن" موضوع الصّورة الفنيّة وأفاض فيه، مؤكّداً عبر الأمثلة والشّواهد استعمال الخطاب القرآنيّ للتّصوير، وتفضيله لهذه الأداة الحسّيّة في تقريب المعاني وتصوير الأحاسيس الإنسانيّة وتجسيد الطبيعة البشريّة، حين يرتقي "بالصّورة الّتي يرسمها فيمنحها الحياة الشّاخصة أو الحركة المتجدّدة، فإذا المعنى الذّهنيّ هيئة أو حركة، وإذا الحالة النّفسيّة لوحة أو مشهد، وإذا النّموذج الإنسانيّ شاخص حيّ، وإذا الطبيعة البشريّة مجسّمة مرئيّة"(قطب، 2004، ص36.) من أجل ذلك يمكن للصّورة البلاغيّة الرّوائيّة أن تستأنس بمثل هذه الدّراسات القرآنيّة بوصفها رافداً معرفيّاً مهمّاً في البحث البلاغيّ.

3- مفهوم السمات البلاغية في الخطاب النقدي المعاصر:

3-1- مفهوم السمة البلاغية:

تحوّلت بلاغة السمات في الخطاب الروائي من بلاغة تزيّينيّة تحسينيّة فقط إلى بلاغة حجاجيّة مهتمّة بالتّصوير الجماليّ المرتكز على ثنائيّة المكوّنات والسّمات، انطلاقاً من عدّها "خصائص تحسينيّة ثانويّة متغيّرة من صنف لأخر، أو هي ملامح أسلوبيّة ولغويّة قد تحضر في النصّ أو تغيب" (حمداوي، 2014، ص90.) بمعنى أنّها سمات لغويّة أسلوبيّة تحسينيّة قد تحضر في الخطاب الرّوائيّ وقد تغيب، على عكس الحضور الدّائم للمكوّنات البنيويّة في الرّواية الّذي لن يتعارض مع تحرّكها بحريّة بين الحضور والغياب

من رواية لأخرى، في تجاوز واضح للقوالب والأشكال البلاغيّة الجاهزة؛ كما لن يقف غيابها عن بعض الخطابات الرّوائيّة حائلاً بينها وبين إسهامها في تجسيد الأبعاد الإنسانيّة والمقاصد الحجاجيّة للتّصوير البلاغيّ حين حضورها.

للسّمات البلاغيّة تشابك وطيد بالخصائص والسّمات الإنسانيّة ينبثق من رؤية نقديّة عميقة، تجعل الصّورة البلاغيّة في محصّلتها النّهائيّة "طموحاً إلى تصوير النّوازع الدّفينة في النّفس البشريّة الّتي تمتنع عن التّقعيد والضّبط، وبذلك لا ترتقي السّمة إلى رتبة القاعدة أو القانون" (أنقار، 2000، ص97.) ولعلّ هذا ما يدعو الباحث عن السّمة البلاغية إلى الانطلاق من القراءة النصّيّة بدل الرّكون إلى القواعد والحدود البلاغيّة، لأنّها لبعدها الإنسانيّ لا تقوم على ضوابط بلاغيّة عامّة تتعسّف في تحديدها، همّها الأوّل "استشراف ما ينطوي عليه الإبداع الأدبيّ من سمات تعبيريّة منفتحة، وكشف ما ينتظم فيه من دلالات وقيم إنسانيّة" (الصابوني، 2002، ص38-39.) بالارتكاز على الذّوق المدرّب الحاصل من الخبرة في التّعامل مع الخطابات الرّوائيّة، المنطلق في قراءته التّأويليّة من المعرفة بالسّمات الإنسانيّة المتنوّعة في الواقع المعيش.

يختلف مفهوم السّمة البلاغية عن مفهوم "الوجه البلاغيّ" في البلاغة التّقليديّة، وعن مفهوم "الإجراء الأسلوبيّ" في الأسلوبيّات المعاصرة ذات البعد النصّيّ، يحدّده غالباً مبدآن هما: مبدأ الانحراف عن معيار مطرد ومتداول، ومبدأ الاختيار بين عدّة إمكانات تعبيريّة متاحة، ممّا يمنح الأولويّة لسياقات الخطاب وظروفه المشكّلة للخرق الإبداعيّ، ويبسط بين يدي المحلّل البلاغيّ فسحة أكبر في الانتقاء بين جملة من الإمكانات التّعبيريّة المتاحة في المنجز الإبداعيّ والنّقديّ المعاصر، بحثاً عن "سمات بلاغيّة لا يمكن تعيينها سلفاً، من قبيل ما تمّ الكشف عنه في بلاغة النّثر مثل سمات "العجيب" و"الخارق" و"الطّريف" و"الواقعيّ" و"الشّاعريّ"" (مشبال، 2002، ص.46-47.) ويدعو إلى الانطلاق من النصّ اللّغويّ بوصفه موضوعاً للتّأمّل والدّراسة وفضاء شكليّاً لنحث السّمات.

تتجاوز بلاغة السمات المفاهيم التّقليديّة عن التّجميل والتّحسين أو التّأثير الأسلوبيّ العتيق، لكونها تنطوي على طاقة بلاغية تتجاوز "السّياق اللّغويّ إلى سياقات أخرى من قبيل التّكوين النّصّيّ ومكوّنات الجنس أو النّوع وعمليّة القراءة"(مشبال، 2002، ص68.) وهذا ما يجعلها تتنوّع بتنوّع تجلّيات الصّورة الرّوائيّة، تؤطّرها محدّدات مختلفة متعلّقة بالمكوّن النّصّيّ في كلّيّته، والسّياق الأجناسيّ في تميّزه واستقراره،

وسياق التّلقّي في استحواذه على المخاطب، وأخرى إنسانيّة متعلّقة بالكشف عن القيم والأفكار والتّعامل مع الطبيعة الإنسانيّة تشترك مع غيرها في تحديد السّمات البلاغيّة للخطاب الروائيّ ، استناداً لتجانس سماتها الإنسانيّة مع السّمات البلاغيّة للخطاب.

لا تكتفي بلاغة السّمات بالجانب الجماليّ للصّورة الرّوائيّة المعنيّ بالتّحسين بالرّغم من اعتقادها بأهميّته، بل "تتجاوز مفهومها الدّال على التّحسين أو التّوشية أو التّأثير الأسلوبيّ الضيّق أو توصيل الدّلالة الجزئيّة، لتدلّ على التّكوين النّصّيّ والاستحواذ على المتلقّي والكشف عن القيم" (مشبال، 2002، ص68.) تحوي في رحابها أبعاداً أدبيّة وفنّيّة وأخرى تواصلية إنسانيّة تصوّر السّلوك البشريّ بطبائعه وأمزجته، وترنو إلى التّعبير عن القيم والأفكار الإنسانيّة المتعدّدة، ممّا يجعل السّمة موضعاً ينصهر فيه الشّكل والمحتوى، بوصفها خياراً جماليّاً متّسماً بالمرونة والخصوبة والامتداد، تؤدّي أدواراً حجاجيّة بانفتاحها على السّياق الخارجيّ في تحاوره الجماليّ مع السّياق الإبداعيّ وسياق التّلقّي.

السّمة إمكانيّة بلاغيّة لا تخضع لضوابط البلاغة التّقليديّة الصّارمة، تتجلّى علاقتها بالبلاغة عبر ما تملكه من قيمة تعبيريّة ذات أبعاد جماليّة وحجاجيّة تفرزها سياقات غير مألوفة في النّظر البلاغيّ، يمكن عدّها "خاصّيّة أسلوبيّة تميّز أسلوباً عن أسلوب آخر، أو هي خاصّيّة موضوعاتيّة تميّز كاتباً عن كاتب آخر" (مشبال، 2002، ص98.) قد تكون في اللّفظ المفرد كما تكون في الجملة والفقرة وقد تسم الخطاب في مجموعه، وبلاغتها ليست "سوى تطوير واستثمار للاجتهادات البلاغيّة الّتي لم تتوقّف طوال تاريخ التّفكير الإنسانيّ في أسرار الإبداع الأدبيّ" (مشبال، 2002، ص68.) تتجاوز بلاغة التّصنيف والتّقعيد ومفهوم المحسّنات البديعيّة المقنّنة في كتب البلاغة التّقليديّة المرتكزة على الرّؤية الشّعريّة لمفهوم التّحسين والتّوشيّة.

يخوض "محمد أنقار" في حقل بلاغة السّمات منذ أكثر من عقدين من الزّمن في إطار اهتمامه رفقة جملة من البّاحثين العرب بالصّورة الرّوائيّة، منطلقاً من عدّ "السّمة إمكانيّة بلاغيّة، بكلّ ما في كلمة بلاغة من أنماط ودلالات متحوّلة"(أنقار، 2008، ص10.) بمعنى أنّ السّمة على الرّغم من تأرجحها بين ثنائيّة الحضور والغياب في الخطاب الروائيّ إلّا أنّها لا تقلّ أهميّة جماليّة ولا حجاجيّة عن بقيّة مكوّنات الخطاب الرّوائيّ الثّابتة، بل تمثّل ركناً أساسيّاً من أركان بلاغة الصّورة الرّوائيّة، بما تضفيه على الخطاب الروائي من خصوصية أدبية بلاغية حين تسم النصّ بسمة الواقعيّة أو الرّومانسيّة أو الدّراميّة أو الشّاعريّة أو الصّوفيّة، وقد تغيب لتفسح المجال لصور المكوّنات كي تتجلّى بقوّة.

حاول "محمد مشبال" في سياق اهتمامه ببلاغة السّمات دراسة بعض أجناس المحكي التّراثّية في الثقافة العربيّة، للوقوف على مكوّناتها البنائيّة وسماتها النّوعيّة الخاصّة، مثل جنس النّادرة الّذي خصّه بدراسة مستقلّة، وقف من خلالها على السّمة البلاغيّة النّوعيّة البارزة فيه، فأصبح "يمكن الحديث عن سمة الطّرافة، الّتي تحوّلت الى مكوّن نوعيّ ثابت في النّادرة، بوصفها نوعًا حكائيّاً انبثق عن جنس الخبر واستقلّ بذاته" (مشبال، 2010، ص90.) ضمن جملة من الأنواع الصّغيرة الّتي انبثقت عنه، على الرّغم من كونها جنساً حكائيّاً بسيطاً يقوم على المزاوجة بين الإفادة والامتاع ومزج الواقع بالخيال.

3-2-سمات الخطاب الروائيّ العربي المعاصر:

تكاد تجمع مجمل الدّراسات النّقديّة للخطاب الرّوائيّ العربيّ المعاصر على اختلافها على سمة الشكّ والالتباس واللايقين الّتي تسود الحياة العربيّة المعاصرة وانعكاساتها النّفسيّة والاجتماعيّة على الإنسان العربيّ، بعدما عانىَ منها الانسان الغربيّ منذ عقود طويلة، الّتي يحاول المحكيّ الرّوائيّ جاهداً البحث عن صور وأشكال جديدة أكثر فعالية وقدرة على تصويرها، من أجل ذلك "تنهض التّطوّرات الشّكليّة الّتي تقوم على تشييد سرد متشكّك، يعرض العالم أمام أعيننا بغموضه وهلاميّته وعدم ترابطه" (فخري، 2009، ص14.) يوحي هذا العرض المفكّك الغامض والهلاميّ إلى القارئ عبر جملة من الأشكال اللّغويّة والتّخريجات التّصويريّة بما يعانيه الإنسان المعاصر في حياته اليوميّة، عارضاً أمامه حيرته وشكّه وتردّده.

تميّز الخطاب الرّوائيّ العربيّ المعاصر بسمة الانتهاك الشّكليّ الدّائم مع كلّ تجربة روائيّة جديدة، بدايةً باستخدام أكثر من راوي، من أجل الوصول إلى رؤية تعدديّة للأحداث وصورة أعمق للتّجربة الإنسانيّة المعاصرة من زوايا ومنظورات مختلفة، أو عبر توظيف ضمائر متنوّعة في رواية الأحداث وتصويرها، رغبةً في خلق حالة من الالتباس عند المتلقّي، تعكس الالتباس الحاصل في تصوّير المعضلات السّياسيّة والاجتماعيّة، والتّعبير عن هلاميّة الحياة الإنسانيّة في العالم العربيّ المعاصر، وصعوبة التّكهّن بوجهتها ومستقبلها، لذا صار "خيار الرّواية العربيّة الجديدة ليس شكليّاً، بل هو خيار رؤية وطريقة نظر إلى الأشياء والعالم" (فخري، 2009ن ص15.) وهي تحاول تصوير هذه الرّؤى الوجوديّة المتشظّية بأساليب وصور جديدة وسمات بلاغيّة مثيرة تضع على عاتق القارئ مسؤولية إنتاج المعنى وتأويل الصور التخييلية

للخطاب، في سياق حالة التّردّد والشّكّ والحيرة الّتي يعيشها الإنسان العربيّ ويتلبّسها الخطاب الرّوائي العربيّ المعاصر شكلاً ومضموناً.

من أهم سمات الخطاب الرّوائيّ الّتي وقف عليها النقد المعاصر جراء احتكامه للمناهج الشّكليّة الواصفة سمة تّموقع المحكي داخل سجن اللّغة بوصفها نسقاً مكتفياً بذاته، تجسيداً لهروب الرّوائيّ المعاصر من الحياة وضجيجها إلى اللّغة وصمتها الأبديّ، حينما فتح فيها نسقاً تعبيريّاً يخوّل له الهروب في مداراتها، بعيداً عن "القلق أو اضطراب الذّات بين الهوّة الّتي تفصل الشّخصيّة الرّوائيّة عن الحلم الّذي تجالد لأجله" (الإدريسي، 2013، ص49.) عبر اكتفاء الخطاب الرّوائيّ بالهمس والإشارة بدل التّصريح بالعبارة، اغترافاً من نبع التّصوّف ومعين الرّوح، حتّى عاد ثملاً مثقلاً بعبارات الهمس، مكتفياً بالتّلميح عن التّصريح، في ظلّ محدوديّة اللّغة وقصورها المتزايد في تصوير عمق أزمة الإنسان المعاصر وفداحة الغربة الّتي يعيشها، بعد أن خذلته وتخلّت عنه بما أخفته من المضمرات والهواجس أكثر ممّا أظهرته وأبانته.

أما عن السّمات البلاغيّة للرّواية العربيّة المعاصرة، فمن أهمها سمة السّخرية الّتي تهيمن أحياناً على الخطاب الرّوائيّ، وقد تتعايش مع سمات أخرى مجاورة تشاركها تحقيق بلاغة الرّواية، حينما تطفو على لغتها وملامحها الأدبيّة بعض اللّمسات السّاخرة دون أن تصل إلى السّخرية المضحكة، لاقترانها بمعاني الخيبة والمرارة والانكسار والإيحاء بقسوة الفقر وبطش الظّلم وقهر المرض، فتتحوّل إلى "صورة بلاغيّة تقوم على المفارقة الدّلاليّة، والتّفاوت بين المعنيين الظّاهر والمجازيّ" (الدهيري، 2011، ص169.) حينها يصير ظاهرها مضحك وساخر وباطنها مؤلم ومحزن، تدفع المتلقّي لشحذ قدراته التّخييليّة لإدراك المقاصد المضمرة للصّورة السّاخرة، خاصّة عندما يلجأ الرّوائيّ إلى التّصوير اللّاذع الحاذق أو إلى التّهجين، رغبة في توليد السّخريّة أو أسطرة اليوميّ عبر تصوير لغويّ يزيد من إبراز التّفاصيل السّاخرة في الحياة اليّوميّة.

برزت في بعض الرّوايات العربيّة المعاصرة سمة أخرى غير بعيدة عن السّخرية، بقيت إلى يومنا هذا من أكثر السّمات غموضاً والتباساً، تُعرف في الأوساط النّقديّة بالمفارقة بمفهومها المتضمن تارة مقصد الهزل والسّخرية والتّهكّم، وتارة مقصد النّقد والتّعارض والتّضاد والتّناقض، وتارة أخرى مقصد التّورية والتّعريض والهجاء والمدح بما يُشبه الذّم والمحاكاة السّاخرة، وهي "تسعى إلى توليد آثار دلاليّة تزاوج بين معنى ظاهر وبين معنى آخر محايث يكون مرتبطاً بمقصديّة الكاتب" (الحسيب، 2014، ص116.) يساهم هذا المعنى الثاني في تشكيل ملامح الصّورة الرّوائيّة، ممّا يجعل المفارقة سمة بلاغيّة رحبة منفتحة على التّأويل، تحتاج من القارئ الحصيف "إعمال الذّهن، وتأمّل عميق للوصول إلى التّعارض بين المعنى الظّاهر

والمعنى الغائض في أعماق النصّ وفضاءاته البعيدة" (أنقار، 1994، ص78.) عبر شحذ إمكاناته التّخيّليّة للوقوف على مقاصدها المضمرة، خاصّة عندما يتستّر الخطاب الرّوائيّ بلباس الغموض والمرارة المضحكة، تاركاً للقارئ بعض الفجوات والفتحات لاكتشاف غاياتها الحجاجيّة والتّأثّر بأبعادها النّفسيّة.

عرفت كثير من الرّوايات المعاصرة سمة التّكثيف النّاشئة عن حالة التّرقب المتصاعدة بتصاعد حدّة الحكيّ، قبل تفاقمها مع تراكم الاحداث وبلوغها ذروتها، كلّما تقدّم بها القصّ كلّما ازدادت توتّراتها شدّة وقوّة، عبر تكثيف المستوى الدّلاليّ بالشّحنات الّتي تتدفّق في أفق انتظار القارئ، حتّى تصل إلى غاية لا بدّ لها فيها من الانفراج؛ لكنّ التّكثيف على عكس ما سبقه من السّمات لا يسهم في ضبابيّة الصّورة الرّوائيّة والتباسها، بل يعمد إلى تقريب عصارة القصّة من ذهن القارئ دون اللّجوء إلى التّفصيل والإسهاب، ويمنحه فرصاً أكثر للمشاركة الفاعلة في تأثيث عمليّة الإبداع الرّوائيّ وتحقيق مقاصده الخطابيّة، من خلال استغلال الإحساس بالتّوتّر المتصاعد مع تفاقم الأحداث، النّاشئ في نفسيّة المتلقّي حين تتبّعه لتطوّرات الحكي وتشوّقه لانفراجها.

تستعمل الرّواية العربيّة المعاصرة أحياناً أساليب بلاغيّة مخادعة، للتغلّب على كآبة الواقع وفداحة الشّرخ بين المعيش والمأمول، فتوهم المتلقّي بالرّضى والاطمئنان والسّلامة والاستقرار، بينما هي تصدر في العمق عن واقع كئيب متناقض، يستحيل قهره إلّا عبر متنفّس التّصوير الإبداعيّ، حين يتحايل الرّاويّ على تناقضات الحياة وبطش الواقع، بما يوحيه في طريقة روايته للحكاية ولغته وإيقاعه من سلام وهدوء وطمأنينة، مثلما يتحايل التّاجر البارع على زبونه فيزيّن له كلّ بضاعة رديئة، حينئذ تصير المراوغة سمة بلاغيّة ذات فعالية جماليّة ودلاليّة ومقصديّة خطابيّة ملموسة، خاصّة في بعض الخطابات التّأمّليّة الّتي تحاول فهم الحياة واستيعابها في عالم مادّيّ منشغل بالأشياء والأحداث عن التّفكير والتّأمّل والعقلانيّة، بحثاً عن سبيل للخلاص من هذا التّناقض الشّاسع بين القيم والمثل في الزّمن الجميل وبين المادّيّة والنّفعيّة والقلق الدّائم في الواقع المنحطّ.

وقف بعض الباحثين على سمة الشّاعريّة في بعض نماذج من الرّواية العربيّة المعاصرة، منتقدين قضيّة تخصيص جنس الشّعر وحده بهذه السّمة، مسجّلين عجز البلاغة التّقليديّة عن استكناه عناصر الشّاعريّة في الأجناس الأدبيّة النّثريّة وفي الرّواية بخاصّة، وعدم اعترافها بشرعيّتها البلاغيّة، منطلقين من "أنّ التّكوين الرّوائيّ والسّرديّ لا يقلّ شاعريّة عن غيره في تصوير المواقف والعواطف والأفكار" (الإدريسي، 2013،

ص269.) لأنّ لكلّ جنس جماليّة نوعيّة خاصّة تتكّفل بتشكيل الصّور الجماليّة وأداء المقاصد الحجاجيّة لخطابه، تنطلق من الخصائص التّكوينيّة لذلك الجنس الأدبيّ، لذا حان الوقت لإبراز مكامن الشّاعريّة في الرّواية العربيّة المعاصرة، استناداً لسياقها النّوعيّ المنفتح على كثير من الأساليب والخطابات واللّغات والفنون والأجناس المتنوّعة.

تحدّث بعض الباحثين عن سمة الصّوفيّة ذات اللّمسة الرّوحيّة في نماذج من الرّواية العربيّة المعاصرة، كأنّها المعين الصّافي الّذي يُستوحى منه وجود الشّخصيّة الرّوائيّة ذات السّمت الصّوفيّ، في سعيها نحو "بلوغ درجة الاشتعال والاحتراق، لا لأمر إلّا لإنارة الطّريق إلى الحقيقة والمطلق" (الإدريسي، 2013، ص49.) في سياق الواقع المرير والقيم الهجينة الّتي تلفّ الشّخصيّة، فتسلخها من روحانيّتها وتُلقّي بها في غياهب اليأس والقنوط والانكسار، و"بذلك تكون الكتابة الصّوفيّة أقدر الإمكانات التّصويريّة على تجسيد تلك العوالم الشّاعريّة" (الإدريسي، 2013، ص47.) وأقدرها حينئذ على وسم الصّورة الرّوائيّة بالإدهاش والغموض والاستتار، ممّا يصعّب على القارئ استكشاف رموزها المتوارية وراء العبارات المرتكزة على المنزع الصّوفيّ السّاعي وراء المعرفة والوصول والتّحرّر من سطوة الحياة الماديّة.

قد توسم الرّواية المعاصرة أحياناً بسمة الخرق الّتي تبدو بعد التّأمل في ملامحها صلّتها الملتبسة بالواقع وبالمتلقّي، لأنّ "الخرق يقتضي الخروج عن قوانين الواقع، وتجاوز ما هو مألوف وطبيعيّ" (أنقار، 1994، ص59.) ممّا يجعل المتلقّي يواجه أحداثاً غير مألوفة تقحمه في عوالم متناقضة وعجيبة، تجمع بين الواقع والخيال أو بين الحقيقيّ والوهميّ أو بين الواضح والغامض، تشعره أحياناً بالدّهشة أو التّعجب أو الخوف، وأحياناً أخرى بالاهتمام والفضول؛ وقد توسم الرّواية بسمة التّدرّج النّاتجة عن التّدفّق التّدريجيّ للأحداث والصّور في مسار الحكي الرّوائيّ وتسلسلها المنطقيّ، فلا يمكن لعين القارئ المتحفّز أن تسهو عن جمالية ذلك التّصوير المتدرّج لتشكيل ملامح وسمات الصّورة الرّوائيّة بُعدَيها الجماليّ والإنسانيّ في الآن ذاته، لأنّ "التّدرّج سمة متأصّلة في التّكوين الإنسانيّ قبل أن تكون من سمات السّرد" (أنقار، 2008، ص36.) كما يمكن الحديث مطوّلاً عن جملة من السّمات البلاغيّة المرتبطة بالرّواية المعاصرة يضيق المقام بتتبعها.

4- خاتمة:

لم يقف مفهوم مصطلح الصورة في النقد السردي المعاصر والبلاغة الجديدة عن التوسّع والانفتاح، والخضوع لتحوّلات مفصليّة تجاوز عبرها القالب البلاغي التقليدي، مخترقاً السياج الشعري العتيق، منطلقاً

نحو رحابة الفنون السينما والأجناس الأدبية المختلفة، حتى أضحى شكلًا تعبيرياً أوسع وأغنى من أن يُحصر في صيغ وأنماط محدودة، وتعبيراً لغوياً جمالياً مفعماً بالخلق والإبداع والحلم والخيال والقدرة على التشكّل والتنوّع والابتكار للواقع، وتمثيلاً حسّياً يضطّلع فضلًا عن وظيفته الجمالية بأدوار تواصلية حجاجية ذات أبعاد إنسانية ومعرفية، مستنداً في توسعه إلى حقول معرفية متنوّعة مثل البلاغة والنقد والفلسفة والفنون التشكيلية والسينما والمسرح والعمارة والفتوغرافيا، جعلته تصويرا تمثيليّاً ينطلق من الواقع لكنّه يتجاوزه عبر الحلم والتشكيل والتعبير الجمالي والتفكير المعرفي والحوار الإنساني العميق.

إثر التحوّلات الحاصلة في الدرس البلاغي في طبعته الجديدة، المتجاوزة لأسوار البلاغة التحسينية نحو بلاغة معرفية تواصلية حجاجية ذات أبعاد إنسانية، شهد النقد الروائي المعاصر ما يعرف ببلاغة السمات في الصورة الروائية، المهتمة بداية بالتصوير الجمالي المرتكز على ثنائية المكوّنات السردية والسمات اللغوية والأدبية، المتشابكة في عمقها بالخصائص الإنسانية، المنبثقة من رؤية نقدية عميقة وقراءة بلاغية معاصرة تجعل الصورة الروائية في محصلتها تشكيلا بلاغيا عن النوازع الإنسانية الدفينة، متجاوزة السياق النصي نحو التعالق بسياقات داخلية مثل السياق الأجناسي وسياق التلقي، وانتهاء بالسياق الخارجي الممثّل لمجموع الظروف التي تشكّل في رحابها الخطاب الروائي، بوصفها مميّزات وخصائص بلاغية لغوية وأدبية وأسلوبية تتجاوز المفهوم البلاغي التقليدي، ممّا يمكّنها من تمييز كلّ خطاب روائي عن غيره من الخطابات الروائية الأخرى، والقيام بأدوار بعضها جمالي والآخر تواصلي معرفي إنساني حجاجي.

يتميّز الخطاب الروائي العربي المعاصر بجملة من السمات البلاغية مثل سمة الشك واللايقين، وسمة السخرية، والغموض، والشاعرية، والتأمّل، والمسحة الصوفية، وغيرها من السمات التي يشترك فيها أحيانا بعض الروائيين، بوصفها ركنا أساسيّاً من أركان بلاغة الصورة الروائية، بما تضفيه على الخطاب الروائي من خصائص لغوية وأدبية تتّسم أحياناً بالواقعية أو الدرامية أو غيرهما من السمات البلاغية المميّزة لكلّ خطاب عن غيره من الخطابات الروائية الأخرى؛ ورغم أنّها تمثّل إضافة نوعيّة في النقد الروائي المعاصر والدرس البلاغي الجديد، إلّاّ أنّ مفهومها لايزال غير دقيق وغير متّفق عليه، ولم تنل حظه من الدراسة والتدقيق، كما هو الشأن مع كثير من المصطلحات والمفاهيم النقدية والبلاغية الجديدة، المحتاجة لدراسات مؤسساتية جادّة، بعيداً عن الطموحات الشخصية والرغبات الأنانية في التميّز والريادة والتألّق، على حساب الاهتمام البحثي العميق والإنتاج العلمي المتراكم.

قائمة المراجع:

- فيروز، آبادي، (1344هـ)، قاموس المحيط، ط2، مطبعة الحسنية المصرية، مصر، المجلد 02.
- ابن منظور، (1997)، لسان العرب، دار صادر، لبنان، المجلد 04.
- محمد، أنقار، (1994)، بناء الصورة في الرواية الاستعمارية، صورة المغرب في الرواية الإسبانية، مكتبة الإدريسي، المغرب.
- القرآن الكريم، رواية حفص، سورة التوبة

-Larousse de poche, dictionnair, (1979), édition Larousse, France.

- روز، غريب، (1991)، تمهيد في النقد الحديث، دار المكشوف، لبنان
- حمود، حمادي، (1981)، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوّره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس
- محمد، مشبال، (2010)، البلاغة والأدب، من صور اللغة إلى صور الخطاب، دار العين للنشر، مصر
- جميل، حمداوي، (2014)، بلاغة الصورة الروائية أو المشروع النقدي العربي الجديد، مطبعة بني ازناسن، المغرب
- عبد الله، إبراهيم، (1994)، الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث لبشرى موسى صالح، المركز الثقافي العربي، المغرب
- محمد، الولي، (1989)، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، المركز الثقافي العربي، المغرب
- محمد علي، الصابوني، (2001)، صفوة التفاسير، تفسير للقرآن الكريم، دار الفكر، لبنان، المجلد 01
- سيد، قطب، (2004)، التصوير الفني في القرآن، ط17، دار الشروق، مصر
- محمد، أنقار، (2000)، البلاغة والسمة، مجلة فكر ونقد، ع: 25
- محمد، مشبال، (2002)، أسرار النقد الأدبي، مطبعة الخليج العربي، المغرب.
- محمد، أنقار، (2008)، ظمأ الروح أو بلاغة السمات في رواية "نقطة النور" لبهاء طاهر، مؤسسة الانتشار العربي، لبنان.
- محمد، مشبال، (2010)، البلاغة والسرد، جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، مطبعة الخليج العربي، المغرب.
- صالح، فخري، (2009)، في الرواية العربية الجديدة، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر.
- عبد الرحيم، الإدريسي، (2013)، استبداد الصورة، شاعرية الرواية العربية، مؤسسة الانتشار العربي، لبنان

- أمينة، الدهيري، (2011)، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، شركة المدارس للنشر والتوزيع، المغرب

- عبد المجيد، الحسيب، (2014)، الرواية العربية الجديدة وإشكالية اللغة، عالم الكتب الحديث، الأردن.

-محمد، أنقار، (1994)، بلاغة التصوير في قصص مصطفى يعلى، مطبعة الخليج العربي، المغرب